

## واقع اللغة العربية

## بين صخب العولمة وسؤال الذات

أ. د. عمر بوقرورة - جامعة باتنة

ب.

## الملخص

الموضوع يتعلق براهن اللسان العربي الذي نتناوله بتداخل قيمي مع سؤال الذات الذي يقودنا حتما إلى حقيقة غائبة في واقعنا العربي ومفادها أن العولمة بالمفهوم المتاح ليست قدرا محتوما لا حول لنا بها أو معها، وأن العولمة لا يمكنها . بصيغة القرية العالمية المعولمة . أن تجردنا أو تجرد الإنسانية من خصوصياتها الماثلة في اللغة وفي الدين والجغرافيا.

والموضوع بسؤال الذات مهم أيضا لأن الدرس الفلسفي والحضاري الأورأمريكي نفسه الذي أنتج العولمة لم ينتجها بمعزل عن سؤال الذات، فالعولمة بالصخب الأمريكي مشحونة بالخاص الذي يحمل في طياته أسئلة الدين وأسئلة اللغة وأسئلة المقدس وأسئلة العرق أو الجنس.

والموضوع لا نظرحه إلا بواقع عربي لم يعد يملك اللسان المبين، فالظاهرة اللسانية في العالم العربي تؤكد ذلك التشرذم الحاصل في الذي نلهجه قراءة ومعرفة، وأحد النماذج على ذلك التشرذم الواقع اللغوي في الخليج العربي، ذلك الواقع الذي آل إلى خلل في الهوية الخاصة وفي النسبة الاجتماعية، كما آل إلى اللالغة أو اللالسان، فمنطوق اللغة ومكتوبها شاهد

على خلل كبير في اللغة العربية في هذه المنطقة ولذلك أسباب سنجملها في البحث.

والموضوع لا نتناوله إلا باستحضار الزمن التاريخي الخاضع للمرحلة الكولونيالية، ذلك لأن ضعف اللغة العربية أو انحطاطها لا يؤسس بزمن العولمة فحسب، بل بزمن ما قبل العولمة، فإشكالية اللسان العربي تبدو بتعقيدات حضارية غدت مسلسلا من العناصر التي لا يمكننا أن ن فصلها عن الزمن الكولونيالي، فالتأسيس لإشكالية اللسان في الواقع العربي بزمن العولمة غير صحيح، والجيد أن نؤسس بالسقوط الحضاري المؤيد بزمن الاستعمار، ثم نؤصل بزمن العولمة (1999 وما بعده)، الذي آل إلى سيئات تشابكت وتداخلت فألت إلى تحول سقيم في العالم العربي، فبدلا من سيادة الأنا حصل التفكك والانهيال المؤيد بالانبهار، وهكذا تكون العولمة قد أكسبت الآخر قوة وورثتنا ضعفا.

هذا مجمل الأمر في الموضوع الذي نريد أن نتناوله في إطار نقدي خاضع للمتغير الحضاري المؤيد بسؤال الذات .

## مدخل

مقاربة الموضوع مشفوعة بالملاحظتين الآتيتين : الأولى وتتعلق بالموضوع الذي أعلن أنني اخترته بحذر لأنني أخشى أن تكون الدائرة المعرفية المشكّلة للمنتمي في العالم العربي قد أخذت إلى الراحة حين اختارت الدخول إلى عالم المعارف والمناهج بالنقل وبالاستعارة بعيدا عن عالم الإنتاج , وأن السؤال في هذه الدائرة لم يعد مجديا , أو أنه بات سؤال النخبة التي تحكمها بالواقع الناقل علاقة اغتراب .

أما الملاحظة الثانية فمؤداها أن العولمة محكومة عند الذين أنتجوها - كخطاب معرفي وكنظام اقتصادي - بمفارقة عجيبة دالة على تفوق أولئك , وعلى عقلية كولنيالية مازالت تتحكم فيهم , فعندهم أن العالم يجب أن يتحول إلى العولمة أو إلى زمن الكونيات ( القرية الكونية , الأسرة الكونية , النظام الاقتصادي الكوني ... ) وفي الآن نفسه نجدهم يعضون بالنواجذ على خصوصيات حضارية يجب أن تحضر , فالعولمة عندهم محكومة بالخاص الحضاري , وعندنا نجد الاندفاع نحو العولمة بزعم مفاده القرية الواحدة دون السؤال عن الخاص الهش أصلا , ذلك لأن سؤال الخاص لم يكتمل كما سنرى .

وبعد فإن المنطلق في الحديث عن حاضر اللغة العربية في واقعنا العربي حضاري، فنحن لا نريد الحديث عن اللغة في إطارها التراكمي الخاضع لاشتقاقات لفظية أساسها المستوى اللغوي المؤيد بالمستوى اللهجي

في العالم العربي، رغم أهمية الحديث عن ذلك، لكننا نريد الحديث عن اللغة بتداخل يفضي إلى البحث في كنه العلاقة بينها وبين أهلها، وبينها وبين العالم المعولم الذي يحاول به أصحابه المنتجون لسماته أن يختصروا العالم، وأن يختزلوه في كليات معنونة بالكوني.

إن اللغة المعنية هنا ليست مجرد أبنية نحوية وصرفية إنها علاقات فوق لغوية، إنها وشائج وعي وفعل حضاري، إنها اللغة الحاملة للنسق المحددة للذوق المؤسسة للنموذج، الفاعلة في إطار اجتماعي غير منفصل وغير خاضع لمفارقات لغوية كتلك المفارقات التي تحياها جغرافيا اللسان في العالم العربي.

والمنطلق مؤيد بالبداية الناقدة الآتية التي تؤكد بها أن الحديث عن الخاص اللغوي أو اللساني في زمن العولمة يعني في أعين العاقلين أن الخاص قد اكتملت عناصره الضامنة لاستمراره في الأمة ولم يعكر صفو هذا الخاص سوى الطارئ الجديد المتعلق بالخطاب العالمي المعولم الخاضع لكوننة ذات سند أمريكي، لكن الواقع يؤكد في أعين العاقلين دوماً أن الخاص اللغوي في عالمنا العربي المعاصر لم تكتمل عناصره ولم تتأيد بما يضمن حضورها مشروطة بالهوية الحضارية، وتبعاً لذلك فإننا نؤكد أن الخاص عليل قبل زمن العولمة، وهو عليل أثناءها وسيعاني يقينا بعدها، ذلك لأن المشكلة لا تكمن في تحديات مادية ومعنوية عالمية آنية تغشانا

في لساننا وثقافتنا وفي عوالم البحث فينا، ونحاول جاهدين أن ندرأ عنا سيئاتها.

إن المشكلة في الإنسان نفسه الذي خضع لتيه متمثل في عجزه عن صياغة الأسئلة المتعلقة بكيانه، وبالعجز وقع هذا الإنسان المعنون بالعربي في المعقد المفاهيمي الذي لم يعرف كيف يخرج منه " إذ لا تفناً تتوارد عليه كثرة متكاثرة من المفاهيم التي تضعها المجتمعات الأخرى، فيأخذ في التخبط في معاقدها ومغالقها، بل في متاهاتها وأحابيلها لا قدرة له على استيعابها، ولا طاقة له على صرفها" (i).

بهذا المنطلق نسأل الآتي الذي سنواجه به الذات في إطار العلاقة بينها وبين المتغير الحضاري الحاصل في العالم الآتي المعولم، أما السؤال الأول فمؤداه ما يلي : هل السؤال عن اللغة وعن هوية اللسان الحامل لخطاب الذات فينا استمرار في البحث عن كينونة لم تكتمل معالمها، ولم تتأيد بالمعرفي الذي يؤهلها للريادة، تلك الكينونة التي تعرضت للاهتزاز منذ سقوط الأندلس وبغداد ومنذ الزمن الكولونيالي الأوروبي، وأنا أردنا بالسؤال أجوبة نحاول بها أن نرصد الحال اللغوي ممزوجاً بالآتي المعولم ؟. أم أن السؤال آني فرضته ردود عربية منفعة خاضعة لوجدان مشوش لم يقدر على مجابهة الواقع العالمي المعولم، فكان السؤال الذي لا يمكنه أن يتجاوز حدود الارتجاع الرومانسي الذي تمارسه شعوب مغلوبة على أمرها ؟ أم أن السؤال

نقل واستعارة وتمثل بفعل الآخر ( لقد سألوا فسألنا، وتحدثوا عن الخاص في ظل الكوني فتحدثنا ... ).

نسأل هذا كي نضع خطاب الخصوصيات في أمتنا في ميزان نقدي بعيدا عن أحلام وعن نوستالجيا الهوية التي لا تفيد، لأننا لسنا متيقنين من جدية طرح أسئلة الخاص الحضاري في أمة لم تقدر على امتلاك المعرفي والسلوكي الذي يهبها شروط السؤال وعناصر الجواب، وجواب الأسئلة مشفوع بالعناصر الآتية التي سنوردها في إطار المتغير الحضاري الخاضع للمشاهد الآتية :

1. مشهد السقوط .
2. مشهد الاستقلال.
3. المشهد الآني المعولم.

1. أما مشهد السقوط، فالحديث عنه مهم في إطار استحضار تاريخي سنني لا يتم الحديث عن حال الخاص . كل الخاص . فينا إلا باستحضار ذلك المشهد المؤيد بمرحلتين معقدتين من المشهد، أولاهما تتعلق بانكسار وانحسار تجلت آثارهما بسقوط الأندلس وبغداد، وما السقوط سوى آية من آيات الوهن الحضاري الذي أصاب الأمة. يقول ابن خلدون في باب الحضارة والعمران " وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة " (ii).

أما المرحلة الثانية فتتعلق بالزمن الكولنيالي الذي لم نفلح بعد في التعامل معه بجدل يفضي إلى علاقات حضارية تحكمها الندية، هذا الزمن الذي ما إن هللنا أيام الاستقلال بنهايته حتى فاجأنا من جديد في نهاية القرن العشرين وفي بداية القرن الجديد بخطاب استعماري مركزيته أمريكوأوربية، هذا الخطاب الذي لجأ به أصحابه إلى تفكيك أثمر السيئ في اللغوي والثقافي والديني والسلوكي والسياسي، والفعل متوحش حيث تأيدت سماته بمقولات سياسية وفلسفية وعسكرية أعادت إلى الأذهان صورة ذلك الغربي الذي كان في القرن التاسع عشر، فمقولات " نحن الخير وهم الشر، نحن الحضارة وهم الانحطاط والتخلف، نحن الإنسان وهم الشيطان ... " يعيد إلى الأذهان صورة ذلك الماضي السيئ الذي تجردت فيه الأنا الغربية من إنسانيتها.

والعجيب في الأمر أن يحضر هذا الخطاب في زمن العولمة الذي يدعي فيه أهله التشابك المؤيد بالمجتمع الكوني والجوار الكوني، والقرية الكونية... لقد أثبت زمن العولمة سوء نية ذلك الآخر الذي أخرج إلى العلن أضغانه، كما أكد سداجة الأنا حين هلل القوم فينا وبشروا بقرية عالمية أكدنا مرارا أننا لن نكون فيها سوى متسولين مادمننا لا نملك المؤهل المعرفي والاقتصادي الذي ندخل به القرية، ومادمننا نعجز عن الإمساك بعناصر الهوية التي تهبنا سماتنا حين المشاركة في العام العالمي المعولم.

إن استحضار المشهد بالمرحلتين . كما أكدنا . مهم لأن ضعف اللغة أو انحطاطها لا يؤسس بزمن العولمة فحسب، فأشكالية اللسان العربي تبدو بتعقيدات حضارية غدت مسلسلا من العناصر التي لا يمكننا أن نفصلها عن المشهد التاريخي المذكور، فالتأسيس لأسئلة الخاص الحضاري بزمن العولمة غير صحيح، والجيد أن نؤسس بمشهد السقوط الذي لم نحسن التخلص من سيئاته ثم نؤصل للإشكالية بعدئذ بزمن العولمة 1999 م وما بعدها، فبذلك نعثر على صلب الموضوع، وبه ندرك أن مشكلاتنا المتعلقة بخصوصيتنا ليست آنية، وأنا لم ننجز الكثير الذي يهبنا سماتنا في ظل عالم معولم لا يرحم .

2. **مشهد الاستقلال** : وهو المشهد الدرامي الذي بدا بتناص عجيب بين

المأساوي والملهاوي، إنه الزمن الذي

أُهدرت فيه أسئلة الخاص الحضاري حيث تعرضت الخصوصيات لانتهاك خطير أسبابه عديدة نجمها في المتغير الحضاري الذي لم يستطع به أهله أن يعاينوا الخاص الذي يجعلهم ندا مشاركا للآخرين فلم يلبث المستقل أن سقط من جديد وفي غلظة من رقابة سننية ناقدة في أحضان المستعمر الذي بادر من جديد في تشكيل المعلم المعرفي واللغوي والسلوكي بما يناسب إنيته التي ترفض الندية والمشاركة في السيادة.

" يؤلمني الضجيج في فرنسا أسمع ما زال في وهران " (iii).

" سكنت في التيه فلول مواكبنا "



وتمزق حبل مراكبنا  
 ووقفنا تحت ضباب الغربة صرعى  
 دون لسان " (iv).  
 " مددت ذراعي وكفي  
 تسولت بالعربية  
 فلم يطربولي ... " (v).  
 " توقظك الدهشة .. تصحو  
 فإذا الشاشة في بيتك روم  
 زوجك، أبناؤك روم " (vi).

هذه بعض أدبيات المشهد وبه تتأثرت عناصر السؤال اللغوي والمعرفي والسلوكي وتلاشت في ظل بلاغة الوطنيات المنفعلة الخاضعة للشعار، إن قيم الثورة والوطنية والحرية والاستقلال قد تحولت من قيم حضائية رائدة إلى قيم مادية شبيهة بحياتها حين الاحتفال، والعناصر تلاشت أيضا بفعل الجدل العقيم القائم بين ثلاثة أنماط من المتعلمين المؤيدين بثلاثة أنماط من الأنساق الثقافية واللغوية والمعرفية وهم :

- . النمط المغترب عن ذاته، فهو المكتفي بالنقل الخاضع للآخر .
- . النمط المغترب في ذاته فهو لا يسأل عن الخاص .
- . النمط الحائر الذي يجابه لكن بلا جدوى .

فبذلك ضاعت أسئلة الخاص، أو استمرت في المراوحة إلى التسعينيات من القرن العشرين حيث تكثف الضياع بضمور سؤال الذات المؤيد بالمسؤولية الحضارية، تلك الذات التي غاب فيها النموذج المعرفي الفاعل المؤسس للذات الجماعية، أو أنه حضر مشوها عتيلا لم يقدر على فعل شيء ( قرارات التعريب التي لا حصر لها ... ) وبذلك أخذ الإنسان عندنا إلى الموجود الذي سنشهد تفاصيله في المشهد الآتي .

### 3 . المشهد الآني المعولم ( سؤال اللغة وصخب العولمة ) .

الحديث عن اللغة في زمن العولمة لا يكون إلا بالحديث عن العولمة ذاتها في إطار المفهوم المختصر بعيدا عن الاستطراد الذي لا يفيد في زمن صارت العولمة فيه واضحة بنتائجها التي نعابن جزئياتها في الواقع العالمي، تلك العولمة التي آثرنا في هذا العنوان أن نستعملها بلفظ ( صخب ) لأن العولمة . كما أكدنا منذ عام 1999 م . ليست حالة إنسانية عامة خاضعة لتطور بشري خاضع لسلسلة من المسارات الحضارية التي تؤدي إلى اشتراك البشر في إنسانية ذات طبيعة استخلافية .

إن العولمة فعل أمريكي أوربي خاضع لمتغير حضاري أساسه أنانية بشرية لم تستطع الفكاك من رواسب الزمن الكولونيالي، تلك الأنانية التي اعتمد بها أصحابها على تجميع العالم أو تشبيكه في إطار اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي مجاله الرؤية الواحدة التي تخضع لنظام الإرسال، فمركز

الكوننة أو الكونية واحد وعلى الآخر أن يستقبل دون أن يسأل، لأن الفعل الأمريكوأوري المعولم فعل مكتمل .

أما السؤال عن الخصوصية في ظل العولمة فأعتقده مشروعا ومشروطا؛ أما المشروعية فتتبع أساسا من خلل في ماهية العولمة، ذلك لأن نتائج العولمة قد أكدت عكس ما كان يحلم به العالم ومنه العرب، فالعولمة ليست مجالا لتوحيد العالم، ولا هي مجال لترقيته بل هي منهج لتحقيق السيطرة " إن نظام العولمة ... أخل بمبادئ أخلاقية أساسية، واقعا في آفات عملية وتعاملية شنيعة " (vii).

فبذلك الخلل كانت أسئلة الخاص التي تجلت في تمرد بدا في الخطاب المعرفي وفي السلوك العالمي، بل وفي أمريكا نفسها حيث أقبل الإنسان بعرقياته المتنوعة على أسئلة الخاص اللغوي، والعربي والطبقي يمارسها في ظل العولمة التي أخلت بمبدأ التواصل والتشارك بين الناس(\*)، فبالعالم المعولم حضر الخاص بقوة، ومن هنا تأتي مشروعية السؤال .

أما الشرط فإننا نريد السؤال بعيدا عن رد الفعل الذي لا يتجاوز الانفعال الآني المحكوم بوجودان حالم، وعليه فإن السؤال عن الخصوصية . أيا كانت هذه الخصوصية، لغة معرفة، ونهج . سيكون إيجابيا إذا استمر في الأمة في إطار التراتب المعرفي الذي يجعلنا نزن الأمر بالقيمي الخاضع للتاريخ المعاصر بأكمله، لأن أسئلة رد الفعل، ومؤتمرات رد الفعل... لا تعدو أن تكون نكهة علمية آنية غرضها الاستعراض، ويحضرني في هذا المجال ما وقع لنا في

مؤتمر علمي عالمي في جامعة البليدة عام 2002 حيث كان الموضوع الذي نحاضر فيه معنونا بالآتي " ماهية الخطاب العلمي في جامعاتنا ... " وكان المأمول أن نناقش الموضوع بجدية نؤكد بها الخلل الحاصل في الخطاب في علاقته بالذات، لكن السلوك الاستعجالي لبعض المسؤولين عن المؤتمر أكد لنا أن المؤتمر فرصة استعراضية تمثيلية هدفها الإشهار.

#### العرب والعولمة وإشكالية السؤال :

يستطيع المتفحص في العلاقة الوظيفية بين الإنسان العربي والعولمة أن يتبين بسهولة أنها لا تتجاوز عالم الظاهر المؤيد بنقل مجوج قائم على التواكل، فمجال الرصد في العلاقة منعدم، وأكبر أسباب العدم ما يتعلق بالدائرة الحضارية أو دائرة الانتماء التي تعجز في الواقع الآتي على امتلاك أدوات ووسائل الرصد التي يمكن بها أن تتواصل إيجابيا مع متغيرات العالم .

إن الدائرة الحضارية في العالم العربي لا تشكل المنتمي الموحد الجامع الخاضع لسمات وحدود مشتركة، ففي العالم العربي دوائر انتماء خاضعة للمختلف السياسي والجغرافي والمعرفي والمذهبي، تلك الدوائر التي يمكننا أن نجملها في الآتي :

- الدائرة المغاربية
- الدائرة الشامية

• الدائرة المصرية

• الدائرة الخليجية

والمختلف سائد أيضا في الدائرة الواحدة كما في الدائرة المغاربية، وتبعاً لذلك فإننا نجد السؤال عن الخصوصيات الحضارية في العالم العربي أمراً بالغ التعقيد، وإن حصل فبهوامش خاضعة للظاهر الدبلوماسي، والحل في هذا المجال أن نرفع الإشكالية وأن نضعها بين يدي النخبة التي تستطيع أن تبادر بتجاوز معرفي وسلوكي يفضي إلى علاقة ناقدة قائمة بمسؤولية حضارية تقيمها بينها وبين الدوائر المذكورة.

ذلك ممكن بصعوبات عينية مشاهدة أهمها أن السؤال النخبوي الجاد الخاضع لصيغ الأمة غالباً ما يتحول إلى مشهد ضائع في ظل دوائر ترفض أسئلة النبوغ، تلك الدوائر التي تقبل على المشاريع والمناهج والمعارف بفوقية يحكمها القرار الذي لا يناقش والدليل على ذلك ما نجده في واقعنا المعرفي والمنهجي الذي تأسره سلط قائمة في مشاريعها على الاستعارة.

أخيراً نؤكد أن السؤال في عالمنا العربي مشكلة، وأن تعقيداته تتبع من تعقيدات العالم المؤيدة بالمختلف السائد في دوائر المنتمي، وأن السؤال لن يجدي، وأن الخاص الحضاري لن يثمر إلا إذا كان نابعا من ذات الأمة كما هو الشأن في العالم الغربي حيث نسج السؤال ذاتي وصاحب السؤال منخرط في المجتمع قائد له، وبالمشكلة نذكر أن السيئ المائل في الاستراحة

الحضارية يبدو أنه قد حصل في العالم العربي، فسؤال الخصوصية غائب والنتيجة اندماج سلبي في العالم المعولم.

### تجليات المشهد اللغوي في زمن العولمة :

المشهد اللغوي مكون أساسي من المكونات الحضارية الأخرى الشاهدة على وجود الأمة، وتبعاً لذلك فإننا نؤكد أن الذي نذكره في الآتي لا يتعلق باللغة وحدها بل بجامع يلقي بها في مشهد حضاري عام تتعرض أسسه للانتهاك كما نؤكد أن التجلي عالمي مع الفرق الدقيق الذي يبدو فيه التجلي في العوالم الأخرى بانية وبذات تتحرك بنقد يضمن حضور العالمي المعولم بالإيجاب بينما يبدو المعولم في العالم العربي بسكون وباستعارة تؤكد اطمئنان القوم ورضاهم بكل طارئ يغشاهم وإن بدا بضدية تحطم عناصر الذات .

وفي الآتي حصر للتجلي الذي نورد به عناصر مختصرة نراها الأساس في المشهد الخاضع لزمن العولمة المؤيد بالأزمة السابقة التي ذكرناها :

1- حضور متقف المعلومات الذي لا يملك السؤال ولا يقدر على صياغته صياغة وطنية خاصة، خاضعة للمتغير الحضاري العالمي الذي تؤكد أبجدياته المعرفية أن الخاص مطلوب في العالم، وأنه لا مقام للعربي في الكوني المزعوم إلا بذلك الخاص.

2 - اعتماد العالمي بدونية يؤكد العربي بها أنه قاصر على امتلاك الخاص، وأنه لا سبيل إلى تطوره إلا بذلك العالمي الوافد المائل في اللغة وفي المنهج وفي المعارف....

3 - ربط اللغة بالسوق والتجارة بعد أن كانت مرتبطة بالهوية عند من امتلك في السابق أسئلة الهوية، وبذلك غدا الاستهلاك هو المعيار في تحديد العلاقة بين الإنسان واللغة، والعنصر خطير لأنه يتعلق بلغة فاقدة للقيمي الذي تجعل الوشائج المعرفية والسلوكية قائمة بينها وبين أهلها، فاللغة في جامعاتنا وفي مراكزنا العلمية والثقافية قد استسلمت لحشد لساني ساد باللغات وباللغات المختلفة التي جردتها من خصوصياتها اللسانية فغدت لغة الجامعة كلغة الشارع.

4 - انتشار المصطلح اللغوي والمعرفي بأسمائه الأصلية في أغلب الأحيان والسبب سرعة النقل وسرعة الاستعارة، وعدم اللجوء إلى ترجمات مسؤولة يعتمد أهلها فيها مستويات علمية كالاستكشاف والبحث عن الدلالة وعن البنى المعنوية وعن علاقتها بلسان الأمة، وتبعاً لذلك فإننا نجد العلاقة بين المصطلح المنقول وبين المتلقي وقد بلغت أوجها التنافري وذلك لمخالفة الترجمة لمقومات المجال التداولي القائم بين الناقل والمنقول عنه.

نتائج المشهد ( اللغة والسياق ) :

تتبع النتائج هنا من المفهوم السابق الذي أثراه بمنهج يعتمد أساساً على السياق الثقافي والحضاري، فاللغة مجموعة هنا في شبكة الأعراف الاجتماعية والثقافية وجميع المؤسسات والأطر التي تحكم الأمة، وفي الآتي حصر للنتائج التي نوردتها مختصرة :

1. تكمن النتيجة الأولى في الفوضى التي لحقت السياق اللغوي المائل في الوجدان والثقافة والإشارة والإبداع، أو ما يمكن أن نتعته بضياع السياق، والنتيجة خطيرة لأنها تتعلق بلسان قوم اشتغل فيه أهله بالحشد اللساني الخاضع للنقل دون مراعاة للعلاقة الحضارية القائمة بين اللغة والذات ، ويزداد الأمر تعقيداً حينما يتحول الحشد اللساني المائل في اللهجات واللغات المختلفة إلى بديل فعلي أو إلى طبيعة وجبلة على رأي ابن خلدون الذي يقول في هذا الشأن : " فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في مجالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي ... وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع " (viii).

لقد استقر في خطابنا العام وفي الخطاب الجامعي ذلك الحشد اللساني المشوش الخاضع للفوضى اللغوية، ويمكننا أن نعثر على تلك الفوضى في كليات العلوم الإنسانية نفسها حيث يلجأ كثير من الأساتذة والطلبة إلى الاشتغال بمعرفة لسانها خليط من اللهجات .



2. توجيه الذوق وتحديد الانطباع العام في المجتمع بحيث يتحول الفرد إلى نموذج مضطرب تحكمه مع المجتمع علاقة الانفصال، والسبب يكمن في سلطة اللغة التي تجلت بسلط لا حصر لها ( فرنسية ، انجليزية ، عربية ، لهجات متعددة ... ) وهنا نجد أن الجاني والضحية هم أهل الثقافة والمعرفة أنفسهم، أو هم الجامعيون الذين لم يستطيعوا - بفعل ثقافة النقل - أن يشكلوا لأنفسهم خطابا خاصا بنظام لساني خاص يدركون به حدود المستويات بين الألسنة المتوفرة في علاقتها بلسانهم الأصلي، والنتيجة الكبرى اغتراب الجامعي عن ذاته وعن مجتمعه، وفقدانه مركز القيادة الذي يفترض فيه أن يتبوأه.

3. تعويم النصوص الأصلية المؤسسة للمعرفة وإبعادها أو تحجيمها بتحريف أو بتصحيف أو باختزال يحاول به القائمون على الشأن اللغوي والمعرفي إرضاء الوافد المعولم، ويمكننا أن نذكر في هذا المجال ما حل بالنص القرآني الذي هو أصل للمعرفة فينا والذي يفترض فيه أن يكون حاضرا في كلياتنا - كل الكليات - كنص عقيدي وفكري ولغوي وجمالي، إنه النص الذي غاب حتى في أقسام اللغة العربية إذ لا نكاد نعثر على طالب يستطيع أن يكمل آية من أجل استشهاد لغوي، ولا نبالغ إذا قلنا أن النص القرآني غائب حتى في كليات الشريعة التي لم تترجمه في لسان فصيح سليم وفي تأويل وتفسير حضاري رائد يستطيع به أهله التجاوب والتجاور الإيجابي مع

المعقد العالمي الآتي، وبذلك كان اغتراب هذه الكليات في أهلها وفي عالم المعرفة من حولها.

4. شيوع الميوعة في الخطاب اللغوي داخل الأسرة نفسها، فأفراد الأسرة وأفراد المجتمع مجموعون في رابطة لا تتجاوز الحد الجغرافي، فلكل لسانه وسلوكه وتفكيره وقناته، وبذلك تعددت المراجع اللغوية واللسانية في البيت الواحد، وفي المجتمع الواحد وبذلك حضر فينا - أو يكاد - ما يعرف في الغرب بالنزعة الفردانية أو ازدهار الذات وتفتحها.

والميوعة المذكورة خطيرة لأنها تجاوزت العام لتبلغ الخاص المائل في الجامعة التي يفترض فيها أن تكون مصدر إنتاج المعرفة ومصدر خصوبة اللسان الخاص الخاضع لعلاقة جدلية يجب أن يقيمها الجامعي بين لسانه وبين الألسنة الأخرى الوافدة في إطار معرفي عالمي، ففي الجامعة أناس يعجزون عن مخاطبة العالم من حولهم بألسنتهم، ويحضرني في هذا المجال ما وقع لأحد الأساتذة العرب الذي حضر في مؤتمر الحوار المتوسطي في مدينة مغربية وفي كلية الآداب، فحاضر بلغة الآخر وبموضوع من إنتاج ذلك الآخر الذي فاجأه بالسؤال الحرج قائلاً: أيها المحاضر من أنت؟ أنت أنا؟ إن هذا لشيء عجاب في مؤتمر الحوار الذي لا يكون إلا باثنين يتحاوران بالمشترك لا بواحد يحاور نفسه، لقد وقع هذا الأستاذ وأترابه في ميوعة جعلت " ذاته تذوب تدريجياً في ذات الآخر " (ix).

5. حضور الانتماء اللساني المؤيد بالوهم، ففي المعرفي السائد في العالم العربي خطابان أحدهما يجنح نحو الذات بلسان عربي غالباً ما يحكمه الحنين أو النوستالجيا، ذلك لأن اللسان هنا لم يتجاوز - في أغلب الأحيان - القرار الفوقي الخاضع للاستهلاك السياسي، أما الآخر فهو الخطاب القوي السائد بألسنة أخرى ذات سند كولنيالي، وبكل ذلك كان الوهم الذي تجلى بتعريب لم يكتمل.

6. اعتماد لغة المعلومات بعيداً عن لغة المعرفة، ففي العالم العربي جامعات ومدارس ومعاهد هدفها أن يتقن الطالب شيئاً من الإنجليزية والفرنسية المؤيدتين بمعلومات في الحاسوب حتى يخرج إلى عالم السوق، فمقتضى التعلم هنا هو الدفع بالإنسان نحو عالم السلع، وعلى هذا يكون عالم المعلومات هو الشاهد الأمثل على جانب من الجهد الحضاري الذي لا أثر للذات فيه إلا بما يحقق المبتغى المادي.

وخاتمة الأمر في موضوع كهذا أن الإشكالية معقدة، وأن الحديث عن الخصوصيات الحضارية يستلزم حضور الإنسان الخاص أولاً، ذلك الإنسان الذي يدرك العلاقة الجدلية القائمة بينه وبين الأمم الأخرى في إطار الانزياحات الكبرى السائدة في عالم معقد تحكمه المصلحة وتسوده الأنانية، لكن أن نسأل عن الخاص من خلال إنسان أو مثقف تائه ضائع في مراجع العالم، وفي لغات العالم، فذلك هو الضياع بعينه.

- 
- i ( روح الحداثة. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي ، ص 11.
- ii ( المقدمة. ج 2 ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ص 451.
- iii ( الحرف الضوء . محمد بلقاسم خمار، ش و ن ت ، الجزائر ، ص 25.
- iv ( نفسه . ص 209.
- v ( نفسه . ص 161.
- vi ( الأعشاب البرية. محمد الربادي ، ص 36 ، 37.
- vii ( روح الحداثة . ص 77.
- \* ( أنظر أسئلة الخاص عند هنتنغتون في صام الحضارات.
- viii ( المقدمة . ج 2، ص 731.
- ix ( روح الحداثة. ص 158.